

الإمام عبد الرحمن المهدي:- مداولات الندوة العلمية

على هامش الندوة العلمية:

للاحتفال المئوي (الإمام عبد الرحمن المهدي)

تحرير يوسف فضل حسن - محمد إبراهيم أبو سليم

الطيب ميرغني شكاك - مكتبة مدبولي 2002م

ا.د. حسن مكي محمد أحمد

تقع المداولات في ما يقارب السبعمئة صفحة من القطع المتوسطة، وتمت المداولات والندوة العلمية وبرامجها المصاحبة على إثر اقتراح، تقدم به البروفيسور / قاسم عثمان نور بإقامة احتفالية بمناسبة مرور مائة عام على ميلاد السيد عبد الرحمن المهدي المولود في 26 يونيو 1885م والمتوفى في 24 مارس 1954⁽¹⁾، وبالفعل تكونت لجنة قومية لهذا الأمر برئاسة بروفيسور / محمد إبراهيم أبو سليم، ومن ضمن مناشط اللجنة كانت هناك لجنة علمية برئاسة د. يوسف فضل حسن، ومن يدي هذه اللجان، خرج هذا السفر. تسعى هذه المقالة لقراءة تحليلية لما ورد في هذا السفر العلمي، وهذا الجهد الممتاز في إبراز صورة رجل السودان الإمام عبد الرحمن المهدي، صاحب مشروع المهديّة الجديدة، والتي تعد انقلاباً فكرياً وروحياً على المهديّة، كما طرحها وعرفها ومارسها والده الإمام محمد أحمد المهدي وكما سار عليها خليفته

(1) توفي السيد عبد الرحمن يوم الثلاثاء الساعة الثامنة مساء الموافق 15 رمضان 1378- وقد توافق ذلك مع خسوف للقمر ربط العقل السوداني البسيط بينه وبين خسوف القمر.

ال خليفة عبد الله التعايشي. وهناك فوارق جوهرية بين المشروعين مشروع

المهدية والمهدية الجديدة، يمكن الإشارة لبعضها في الآتي: -

- المهديّة دعوة دينية، تستند على تراث ديني، يقوم على إهداء ولاية رحمانية تنزل على صاحب الدعوة، لإقامة مشروع ديني بالدعوة والجهاد.
- المهديّة الجديدة، جهود في بناء كيان الأنصار وفق متطلبات الإدارة الاستعمارية.
- المهديّة تقوم على الخروج على الأوضاع القائمة ومحاربة الحكومة. وتجاوز العنف وسفك الدماء، لإقامة دولة العدل والسلام على انقاض دولة الكفر والظلام، والمهدية الجديدة تتحالف مع الإدارة الاستعمارية، وتقبل بمدارسها وإداراتها وكنائسها وجيشها ونظمها.
- المهديّة قامت على المفصلة والخلوة والجلوة والمبارزة والعزلة الشعورية بينما قامت المهديّة الجديدة على التفاعل مع الحراك الاستعماري، والقبول بمعطيات المدنية الجديدة ومطلوبات الدولة القطرية القومية ومجابهة فكرة مطلوبات الأمة الإسلامية الواحدة.

وفي هذا الإطار نقرأ محتويات الدراسة التي تشمل خمس عشرة مقالة وافية، بينما تتمثل محتويات الجزء الثاني الوثائق والمراجع والمرشد والبيبلوغرافيا والرسائل، والجزء الثالث يدور حول حياة الإمام والمهرجان المقام بمناسبة شفائه وعودته من سويسرا - أكتوبر 1958 ثم احتفالات التأبين.

يستفاد من الدراسة أن السيد عبد الرحمن شخصية استثنائية، نجحت تماما في مجال الحياة العامة بأبعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ولذلك ارتفع ذكره على عكس وضعية أخيه السيد/ علي المهدي، الذي عمل موظفا في حكومة السودان، فمات ذكره، وعلى خلاف ابن الخليفة عبد الله - عمر الخليفة الذي عمل

حسن مكي محمد أحمد الإمام عبد الرحمن المهدي: - مداورات الندوة العلمية ضابطا بالجيش الذي فتك بالأنصار، وفتك بأبيه - وقد ظل المرحوم عمر الخليفة معارضا للسيد عبد الرحمن وناكفه وحالف من خالفه (2).

اختار السيد عبد الرحمن الأحوط والأسلم لكيان الأنصار، الذي كان مهددا بالاستئصال، وقد رأى بعينه هدم قبة المهدي ونش قبره وإيداع رفاته في النيل، كما عاصر مقتل الخليفة عبد الله، ثم مقتل الخليفة شريف، ومقتل الفاضل والبشرى، إخوانه الكبار والذين ألقى كذلك برفاتهم في النيل، وكان خياره إما أن يمضي في طريق المشروع الجهادي، فيصبح مثل من سبقوه طعمة للأسماك أو يختار سبيل الحفاظ على الحياة وحياة الكيان، وانتهى السيد عبد الرحمن إلى أن تبديد الأموال وسفك الدماء ليس أسلوبه المفضل - كما ندد بدعوات العيسوية، وحكم على من يدعي العيسوية بالخروج عن الملة (3). وعند ذلك انقلاباً جوهرياً على المشروع المهدي وتعديله بحيث يكون متوائماً ومقبولاً للإدارة البريطانية.

فإذا كان المهدي قد ألزم أبناءه وأنصاره وخصومه بالجلباب المرقع فإن السيد عبد الرحمن اختار لبس القفطان ولوازمه، إشارة إلى المفارقة الشكلية لرسوم المهدي، حيث أرسل المهدي الجلباب المرقع لغردون وألزم به سلاطين وبقية الأسرى، بينما حظي السيد / عبد الرحمن بلقب سير في مقام النبيل الإنجليزي، والباشا في الدولة المصرية، خبرات السيد ومراجعاته، جردت عقل السيد تماماً من فكرة الجهاد والعنف أو مقاومة الحكومة الاستعمارية، التي توخت في نظره العدالة، وبسطت الأمن وأمنت الطريق لبلاد الحرمين، مما مكن السيد عبد الرحمن من أداء فريضة

(2) انظر مقالة محمد إبراهيم أبو سليم، السيد عبد الرحمن وإمامه الأنصار، ص 132

(3) مقالة يوسف فضل حسن، الإمام محمد أحمد المهدي، صرح مؤسسي، ص 7

حسن مكى محمد أحمد الإمام عبد الرحمن المهدي:- مداولات الندوة العلمية
الحج في عام 1927 بسهولة يسر، وجعلت السوداني يحس بأنه أصبح قادرا على
الوفاء بمطلوباته تدينه، أكثر مما كان عليه في أيام المهديّة.
لم يكن من الممكن للسيد عبد الرحمن، الحفاظ على كيان الأنصار، وطباعة راتب
المهدي خمس طبعات⁽⁴⁾، ولو لم يقدم التنازلات المطلوبة والتي تقوم على اعتناقه
لفكرة المواطنة، وأن يقبل بأنه مواطن ممتاز في دولة المشروع الإدارة الإنجليزية،
وأن قبوله للمشروع يعطيه أسبقية وألوية كمواطن ذي رتبة عالية، تصبغ عليه
الأعطيات والتصاريح والأراضي، وحتى أصبح يملك أكثر من 150.000 فدان
زراعي، مكنه أن يصبح أغنى أغنياء السودان. لم يجمع السيد المال من أجل
المال، ولكنه اتخذ المال وسيلة لرفع وضعية الأسرة، والدعم المتواصل لمكونات
المجتمع السوداني من تعليم وللصحافة ودعم للأفندية.

يمكن إظهار استثنائية السيد وجهاده ومراجعاته بمقارنته مع أخيه علي المهدي،
الذي اكتفى بأن يكون أفنديا في سلك الإدارة الإنجليزية، وكذلك مع ابن اخته
حسين شريف، الذي هو في ذات ابن الخليفة شريف الخليفة الرابع في المنظومة
المهدوية، الذي اكتفى بأن يكون صحفيا ورئيسا لتحرير صحيفة حضارة السودان،
التي صدرت بدعم وتشجيع الإدارة الإنجليزية، لتأكيد القومية السودانية في وجه
مصر وتركيا تحت شعار السودان للسودانيين⁽⁵⁾. كما أنهى السيد قطيعة المهديّة
مع كثير من مكونات المجتمع السوداني ومد الجسور مع السيد على والمراغنة،
وأبرز كيان الأنصار ككيان متصلح مع المجتمع والدولة وحول طاقات الجهاد

(4) المصدر السابق، ص 16

(5) راجع مقالة محبوب محمد صالح، دور السيد عبد الرحمن في نشأة ودعم الصحافة
السودانية، ص 298.

حسن مكي محمد أحمد الإمام عبد الرحمن المهدي:- مداولات الندوة العلمية إلى مشروع روحي وفكري وتنموي وتعليمي، وإن أخذ عليه توظيف طاقات الأنصار المادية والفعلية، وتحويلها إلى فائض قيمة " السخرة" ليصبح أغنى أغنياء السودان، بينما ظل الأنصار في الخدمة في سبيل السيد، حيث كانوا يرون أن ذلك غاية مطعمهم في الوجود.

نجح السيد/ عبد الرحمن في كسب المجتمع السوداني، وطمأنة مكونات المجتمع، وأزال خوفهم من ترسبات النفوس حول ما جرته عليهم المهديّة؛ لأن الحراك المهدي والمشروع المهدي خصوصاً في أيام الخليفة، أدى إلى استقطاب شديد في المجتمع السوداني، دفع بقيادة دينيين (كالمراغنة) وقيادات سمائية كالخليفة محمد شريف نور الدائم، وقيادات قبلية كالبطاحين والشكرية والشايقية بالاستجارة بالأجنبي لسحق المهديّة، ومما أهملته الحوليات السودانية أن جيش كتشنر كان في حقيقته مؤلفاً في قواعده من الجنود السودانيين، وكانت القيادة للإنجليز وبعض المصريين.

وقد محي السيد عبد الرحمن بلاطفه ودبلوماسية وتواصله- عقدة خوف الكثير من السودانيين على الأخص النيليين من كيان الأنصار الجديد، حيث تصالح مع غريم المشروع المهدي الأول السيد علي، ودخل معه في منافسة، بل خطف منه أولوية القرب من رموز الحكم الثنائي، رغم أولوية السيد علي في دعم المشروع الإنجليزي في السودان، حتى جاء اليوم الذي أصبح للسيد عبد الرحمن الأولوية في مقامات الدولة الإنجليزية.

ولكن كذلك فإن إسهامات السيد عبد الرحمن وتفاعله مع أتراح وأفراح السودانيين، كانت الأكبر والأهم- حيث تزواج وزواج أهل السودان، وانخرط في الحراك السوداني السوداني، وكان من الداعمين والمؤسسين لصرح الصحافة السودانية والتعلم والنشاط التنموي - لذا الأعجب أن مدحه أكثر من 92 شاعراً سودانياً،

حسن مكي محمد أحمد الإمام عبد الرحمن المهدي: - مداولات الندوة العلمية
وسجلت في حقه مئات القصائد على مختلف السنة السودانيين، كمحمد المهدي
المجنوب والتجاني يوسف بشير ويحيى الفضلي وعبدالله الشيخ البشير والبنا ومحمد
أحمد محجوب ومحمد سعيد العباسي، بينما هجا والد الأخير الإمام المهدي ذاته.
ماذا كان سيحدث يا تري، لو أن السيد عبد الرحمن اختار طريق على المهدي أو
ال خليفة شريف مجرد بيدق في سلك الإدارة الإنجليزية؟ لم يك ذلك ليعني كثير
شيء في سياسة الإدارة الإنجليزية، إذ ربما تأخر استقلال السودان، أو صنع
الإنجليز غيره لملء الفراغ، لأن الإنجليز كانوا قد أكملوا نواة الدولة السودانية،
وكانت على موعد مع فتح الغطاء، لتصبح في عداد تقرير المصير على ما حدث
في مختلف المستعمرات، ابتداء من الهند، مروراً بغانا وتونس والسنغال وكينيا،
وحتى مصر.

أوجد الإنجليز مكونات الدولة ممثلة في الحاكم العام " رئيس الجمهورية : ومجلسه:
مجلس وزراء " وهناك مؤسسة عسكرية متكاملة " جيش وشرطة "، وإدارة مركزية
من مفتيشي مديريات ومراكز وخدمة مدنية وجهاز إداري في قاعدته إدارة أهلية،
وسلطة قضائية ونظام تعليمي - سكك حديدية، مشروع جزيرة، مطارات موانئ -
مشاريع زراعية مروية وغير مروية.

كما أن مشاركة قوات دفاع السودان في الحرب العالمية الثانية جعلت السودان
مؤهلاً لتقرير المصير والحكم الذاتي والمجلس الاستشاري - ولم يكن للسيد عبد
الرحمن أو السيد علي أو مؤتمر الخريجين دور كبير في التطور الاقتصادي
والدستوري، وإن كان لمؤتمر الخريجين مساهمة كبيرة في التعليم الأهلي.

تمثل دور السيد عبد الرحمن في تفعيل المواعين والسياسات، التي اختطها الإنجليز
والتعجيل بإنضاج ما في هذه المواعين، أما الخيار الآخر للسيد - أي الجهاد
ورفض حكم الكفار على طريقه السحيني أو على دينار، كان يعني النهاية له،

حسن مكي محمد أحمد الإمام عبد الرحمن المهدي: - مداولات الندوة العلمية
ولكيان الأنصار. ولم يك ثمة خيار سوء الاندماج في المشروع الإنجليزي، ونسخ
المهدية في نسختها الأولى دون دمجها أو إدانتها والاكتفاء بتجاوزها.
ولقد عبر عن ذلك السيد الصادق المهدي في مقالته قائلاً (لقد أنقذ المهدية من
مقصلة الإعدام وحمى الأنصار من خزعبلات عجائبية) (6). ولعل في إدانة السيد
الصادق لما أسماه بالخزعبلات العجائبية، يمتد لكل التراث المهدي الذي يقوم
على الحضرة النبوية والرؤي المنامية واللامعقول كأساس للقيادة والمعرفة. فهذه
الخزعبلات كما أسماها، هي عند العيسويين، كما هي عند المهديين فتوى قطعية
تجوز سفك دماء منكرها. ولعل الصادق المهدي خلط بين المبشرات من الرؤي،
والتي هي مجرد محركات ذاتية لمن يتمثلها، وبراها وبين من يلزم بها غيره ويسفك
دمه فيها.

ومهما يكن، فالدعوة للإسلام والتحرير لم تستوجب سفك الدماء ولا الحضرات ولا
اللكفاء، فعجيب المانجلك من أهم الشخصيات السودانية، التي وطنت للدعوة
وللدولة في السودان، وهو الذي بنى معظم الأوقاف السنارية في الحجاز، وهو
الذي فتح طريق الحج ما بين بربره وسواكن في القرن السادس عشر الميلادي -
ولم يحتاج في إصلاحاته وقيادته ومنهجه لحضرة نبوية أو إدعاء بصلة مباشرة
بالذات الإلهية - وماذا عن الزبير باشا رحمة، الذي ضم دارفور للكيان السناري،
ومن قبل ضم بحر الغزال على قذف ما فهمه من الثقافة الإسلامية. وكذلك رابع
فضل الله الذي وطد أركان إمبراطورية إسلامية دون دعاوي لا تدخل في منظومة
اللامعقول ودون خزعبلات.

(6) الصادق المهدي، عبد الرحمن الصادق، إمام الدين، ص 102

حسن مكي محمد أحمد الإمام عبد الرحمن المهدي: - مداورات الندوة العلمية

دخل السيد عبد الرحمن في مكاتبات مع حسن البنا وجمال عبد الناصر وعدد من أصدقائه من الإداريين الإنجليزي السابقين (7).

ولكنه تجنب منهج البنا حتى لا يجلب على نفسه غضبة إنجليزية، أو لعله رأى في تراث المهدي ما يغنيه عن الوارد المصري، ولم يك له عقدة من الوارد المصري، بدليل أنه قام بتعيين صحفي مصري اسمه حسن صبحي ليكون أول لرئيس لتحرير جريدة النيل (8). وهي جريدة مهنية إخبارية تتجنب الخوض في تراث المهدي، وتكتفي بالمهنية في نشر الخبر وتوطيد القومية السودانية.

يعتذر السيد الصادق المهدي لجده السيد عبد الرحمن بأن لكل وقت ومقام حال ولكل زمان وأوان رجال (9). وهذا كلام عام لا يرفع ولا يخفض، ولا ينسخ القطعيات ولا يتجاوز ما جرى في التاريخ الإسلامي، ولا يعطي إجابات عن الفرق بين النبوة والدجل واللامعقول، وليس فيه إجابة لسؤال لماذا لم تعط المهدي أولوية لوحدة البلاد والمصالحة، كما فعل عمارة دنقس وعبد الله جماع قبل المهدي بأربعمئة سنة؟ وماذا أخذ السيد عبد الرحمن من المهدي؟ وماذا ترك؟ وهل عقل السيد أقرب لكتشنر أم للمهدي؟ وهل عقد الشراكة الذي قامت عليه مجلة حضارة السودان، ونص على تحكيم جناب المخبرات في جميع الأمور، التي يختلف عليها أعضاء لجنة الإدارة، وهم السيد على الميرغني، والسيد عبد الرحمن والسيد الشريف يوسف الهندي، مستمد من شرعة المهدي أم شرعة غردون / كتشنر. (10).

(7) مقالة أبوسليم، مصدر مرشدي، ص 460-467 .

(8) مقالة أبوسليم، السيد عبد الرحمن وإمامة الأنصار، ص 104.

(9) الصادق المهدي، مصدر سابق، ص 10 .

(10) عادل شرفي : دائرة المهدي، المؤسسة الاقتصادية للإنصار، ص 220 .

حسن مكي محمد أحمد الإمام عبد الرحمن المهدي:- مداولات الندوة العلمية
كما أن معاملات دائرة المهدي مع البنوك الاستعمارية وإعفاء الحكومة الاستعمارية
له من قرض باركليز ونمو دائرة المهدي حتى أصبح لها ملحج وثلاث بواخر
نييلية وطائرة وعربات وعلاقات مع بيوت الخبرة والمال التي أنشأها الاستعمار أقرب
للمهدية أم لغردون وكتشنر.

سعى الإمام عبد الرحمن في إنشاء الخلاوي والمساجد بضغط المجتمع الأنصاري
حوله، ولا توجد دراسة توضح إن كان ما أنشأه من خلاوي ومساجد يتكأفا مع ما
جباه من زكوات وصدقات وهدايا - أم أنه زاد على ذلك من ماله الخاص -
ويحدثنا كتاب: مآسي الإنجليز في السودان لصاحبه أحمد خير، بأن ما أنشأه
مؤتمر الخريجين من مدارس في خمس سنوات، أكثر مما أنشأه الإنجليز في
خمسين عاما - ولقد دعم السيد عبد الرحمن كغيره مسيره مؤتمر الخريجين ودعم
مدارس الأحفاد، بالإضافة إلى بعض الجهود العلمية في الجزيرة أبا.
من المؤكد أن مداولات الندوة إضافة كبيرة ومقدرة للحركة العلمية في السودان،
ولحركة التدوين والتوثيق، ونحتاج لندوة كهذه في شأن السيد على الميرغني، والسيد
الشريف يوسف الهندي، وكذلك السيد على دينار، ومن هم في قامتهم من رجال
الدولة والدعوة وشكرا. لمصنفي الكتاب ومن شارك فيه.